مجلة علوم اللغة العربية (فصلية علمية)

تاريخ استلام المقال: ١٥/ ٨/ ١٤٠٢ تاريخ قبول المقال: ٢٨/ ٩/ ١٤٠٢

ملامح الاغتراب في المقامة الكوفية للحريري (شخصية أبي زيد السروجي أنموذجا)

سيد حسين مرعشي[١]*، عبدالباسط بلوكي[٢]

١. أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة شيراز (الكاتب المسؤول)؛
hosein-marashi@shirazu.ac.ir
٢. طالب ماجستير في اللغة العربية وآدابها، بجامعة شيراز

الملخص

يشكّل الاغتراب بأنماطه المتعددة ظاهرة بارزة في الأدب العربي، حيث ظهر في مراحل وعصور مختلفة. انتشرت هذه الظاهرة في العصر العباسي بشكل واسع، وذلك لأسباب وعوامل متعددة. انعكس هذا الأمر في نصوص الكتّاب والأدباء في تلك الفترة.كان من بين هؤلاء صاحب المقامات الشهيرة بديع الزمان الحريري، حيث ضمّن كتابه قصص وحكايات تحاكي وقائع اجتماعية حقيقة. تتكون المقامات من عناصر سردية متنوعة: كالشخصيات والحدث والزمان والمكان وغير ذلك، ومن أبرز الشخصيات المركزية في مقامات الحريري هي شخصية أبي زيد السروجي. تتميز هذه الشخصية بالتلون والتضليل والنفاق. وظّف الحريري شخصية أبي زيد السروجي توظيفا بارعا، وذلك حين أوكل إليه تجسيد شريحة الفقراء والمعدومين ومايعانونه من تشرد واغتراب. نحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على ظاهرة الاغتراب في المقامة الكوفية وأنماطها المتعددة، متبعين في ذلك المنهج النفسي. ومن ضمن ماتوصّلت إليه الدراسة هو أن الاغتراب في تلك الفترة لم يأت عبثا، بل كان نتيجة لظروف وعوامل متعددة: كالعامل الاقتصادي والاجتماعي. وأن السروجي ذاق مرارة أشكال متنوعة من الاغتراب، كالاغتراب النفسي والاجتماعي والمكاني.

الكلمات المفتاحية: المقامات، المقامة الكوفية، الحريري، أبو زيد السروجي، الاغتراب.

المقدمة

يشكل الاغتراب بأنواعه المختلفة ظاهرة بارزة في الأدب العربي. فلايكاد عصر من العصور يخلو من هذه الظاهرة، ويتجلى ذلك في خطاب ونصوص الشعراء والأدباء قديما وحديثا، حيث نشأت عندهم حالة اغتراب نتيجة معانتهم الداخلية وصراعاتهم مع ذاتهم والعالم الخارجي. وهذه الحالة لاتطرأ على الإنسان عبثا، بل تأتي نتيجة بواعث وعوامل متداخلة وعديدة على رأسها: العامل النفسي والاجتماعي والمكاني.

من العصور التي شهدت فيها الحياة تغيرات وتطورات عديدة هو العصر العباسي، حيث شهد هذا العصر ظهور الطبقية في المجتمعات، حيث نجد الطبقة الغنية تنعم بالرفاهية والعيش الهانئ بلغ حد الترف والبذخ، في الوقت نفسه تعاني شريحة أخرى في المجتمع من الفقر وضيق الرزق وقسوة الحياة. وهذه الوضعية المزرية كانت باعثا لبروز التكدي والتكسب والاغتراب.

صدى هذه الشريحة نكاد نراها في المقامة الكوفية للحريري متمثلة في شخصية أبي زيد السروجي بطل المقامة، حيث نحاول تسليط الضوء على جانب من حياة هذه الشخصية المثيرة والمحيرة. ستناول في هذه الورقة البحثية ظاهرة الاغتراب وعواملها وبواعثها المختلفة في حياة أبي زيد، خاصة العوامل المكانية والنفسية والاجتماعية. وسنكشف عن صور المأساة والمعاناة التي تجرعها السروجي بطل المقامة في حياته، وكيف قام بمواجهتها والالتفات عليها عبر طرق المراوغة والاحتيال.

تتميز المقامات بأنها تجمع بين فنون القول وأساليب القص. وكباقي الفنون السردية تتشكل من عناصر متنوعة: كالأحداث والشخصيات وغير ذلك. وكل مقامة لها أحداثها الخاصة، ولا علاقة لها بأخواتها الأخرى من حيث المضمون والأوصاف. نحاول في هذه الداراسة التركيز على الأحداث التي تدور في المقامة الكوفية خاصة موضوع الاغتراب.

أما بالنسبة للشخصيات، فهناك شخصيات متعددة تلعب أدوار مختلفة ومتنوعة كشخصية أبي زيد السروجي والحارث بن همام، حيث سيقتصر تركيزنا في هذه الدراسة على الشخصية الرئيسة، وهو أبو زيد السروجي التي تتولى أدوار متنوعة ومتقلبة.

تكمن أهمية الموضوع أنه يتطرق إلى أهم الظواهر التي شاعت في العصر العباسي، حيث سنكتشف كيف قام الحريري بتسليط الضوء على هذه الظاهرة، وذلك من خلال شخصية أبي زيد الذي يعكس معاناة المجتمع وأوضاعه المأساوية التي أدت إلى انتشار التكدي والاغتراب. نتوخى في هذه الدراسة أهدافا محددة، منها:

- الكشف عن ظاهرة الاغتراب في المقامة الكوفية

- تسليط الضوء على أنواع الاغتراب في هذه المقامة
- شخصية أبي زيد والطرق والآليات التي اتبعها لدفع هذا الاغتراب

منهج البحث

المنهج المختار لهذه الدراسة هو المنهج النفسي، حيث يقوم هذا المنهج أساسا بدراسة وتحليل الشخصيات وطباعها وسلوكها وانعكاس ذلك على نشاطها وتفاعلها وتكيفها مع محيطها وبيئتها. كذلك يهتم هذا المنهج بالظروف الاجتماعية والمؤثرات الثقافية لحياة الفرد وأثرها في وعيه ونفسيته. تستعين دراستنا بهذا المنهج في تحليل شخصية أبي زيد وانعكاس العوامل النفسية والظروف الاجتماعية على شخصيته حيث أدت هذه العوامل إلى تشرده واغترابه.

باتباع المنهج المذكور، نحاول في هذا البحث الإجابة عن الأسئلة التالية:: ماهي أشكال وأنواع المظاهر الاغترابية الواردة في المقامة الكوفية؟ وماهي الأساليب التي اتبعها السروجي لدفع هذا الاغتراب؟

الدراسات السابقة

هناك بحوث ودراسات كثيرة تم إنجازها حول ظاهرة الاغتراب في العصر العباسي، إلا أننا لم نعثر على دراسات مستقلة تتناول ظاهرة الاغتراب في مقامات الحريري بشكل عام أو في المقامة الكوفية بشكل خاص. لكن بإمكنا أن نشير إلى أهم البحوث والدراسات التي تناولت المقامة الكوفية، وظاهرة الاغتراب في المجتمع العباسي بشكل عام، منها:

سلامي (٢٠٠٠)، قامت الباحثه بدراسة الاغتراب في الشعر العباسي. وتعد من الدراسات الهامة في هذا المضمار، حيث تناولت الاغتراب من عدة أوجه. كذلك تطرقت إلى دوافع الاغتراب ومظاهره في الشعر العربي، ثم تعرضت إلى أنماط الاغتراب مع تركيزها على الاغتراب عن الذات في شعر الكدية والمجون. تم الإستفادة من هذه الدراسة في العامل الاجتماعي للاغتراب في العصر العباسي، إلا أن دراستنا تختلف عنها من حيث التركيز على مظاهر الاغتراب في المقامة الكوفية وشخصية أبي زيد السروجي.

كيليطو (٢٠٠٧)، قام الناقد المغربي بتحليل المقامة الكوفية معتمدا على القراءة التفكيكية، حيث قسم المقامة إلى فقرات .تناول فيها الأحداث والشخصيات كشخصية أبي زيد المتقلبة والمتلونة، وحديثه عن ثنائية الليل والنهار والقمر وربطها بشخصية أبي زيد. كذلك حديثة عن التناصات الدينية كقصة إبراهيم وموسى. تطرق كيليطو إلى قضايا مفصلة ومتشعبة يصعب تلخيصها في هذا الموضع. تتفق دراستنا مع هذه الدراسة في تحليل شخصية أبي زيد السروجي خاصة في تقلبه وتلونه، لكنها تختلف معها من حيث تناولها

ظاهرة الاغتراب وأنماطها المتنوعة ومعاناة السـروجي من هذه الظاهرة، وهذا ما لم يتعرض إليه عبدالفتاح كيليطو.

الجبوري (٢٠١٣)، قام بدراسة شاملة لشخصية السروجي في مقامات الحريري، مركزا على أنماطها وهيئاتها وتحولاتها في جميع المقامات. من ضمن ماتوصلت إليه هذه الدراسة أن شخصية أبي زيد تتسم بالموسوعية، فهو عالم في اللغة والنقد والبلاغة وهو فقيه في الدين أيضا، وأن الحريري قام بتوظيف شخصية السـروجي بوصـفها جزءا من البنى الثقافية والاجتماعية، وأن الأدوار التي أوكلت للحريري هي عبارة عن مواقف اجتماعية لها حضورها في الواقع الاجتماعي. استفاد الباحث من هذه الدراسة في موضوع حقيقة وجود شخصية السروجي وخيالها، والواقع الاجتماعي وانعكاسه على شخصيته، غير أن دراستنا تختلف عنها من حيث تناولنا لمظاهر الاغتراب في شخصية أبي زيد، في حين أن الجبوري لم يتطرق إلى هذا الجانب في دراسته.

نصـيرة (٢٠١٦)، قام الباحث بدراسـة الاغتراب الاجتماعي عند أبي العلاء المعري، حيث ناقش تجليات الاغتراب في حياته . أشار ضمن دراسته أن المعري تميز بغربة عقله عن بني جنسه، وأنه رفض ما فرض عليه من رجال الدين الذين أبدوا التزمت. وأن أحد أسباب اغترابه ما وجد من المجتمع العباسي من انحراف وفساد وتحلل من القيم. تم الاستفادة من هذه الدراسة في التصور الذي قدمه الباحث حول الاغتراب الاجتماعي في العصر العباسي. لكنها تختلف عنها في تناولها لظاهرة الاغتراب في المقامة الكوفية.

يرصـد هذا البحث تجليات ومظاهر الاغتراب في المقامة الكوفية خلال ثلاثة محاور. في المحور الأول نتناول مفهوم الاغتراب لغة واصطلاحا وحقيقة شخصية أبي زيد، أما المحور الثاني سنتحدث عن الاغتراب المكاني، وفي المحور الأخير ستنطرق إلى الاغتراب النفسي والاجتماعي.

مفهوم الاغتراب وأنماطه

الاغتراب من الظواهر التي كان لها حضور بارز في الدراسات القديمة والحديثة، وتكاد مقاربات اللغويين في معاجمهم حول كلمة الغربة تتفق على أن معناها التباعد والنزوح والبعد عن الوطن. فقد ذكر صاحب لسان العرب بأن الغَرْبة والغَرْبُ: «النوى والبعد. والغَرْبُ الذهاب والتنحي عن الناس» (ابن منظور، ١٤١٤ هـ، ج١: ٣٦٣). وللمعنى ذاته أشار ابن فارس إلى أن الغربة: «البعد عن الوطن، يقال: غربت الدار. ومن هذا الباب: غروب الشمس، كأنه بعدها عن وجه الأرض» (ابن فارس، ١٩٧٩م، ج٤: ٤٢١).

أما بالنسبة للمفهوم الاصطلاحي لمصطلح الاغتراب، فقد تعددت مفاهيمه وتعاريفه واستعمالاته نظرا لكثرة المنظرين له، حيث تعددت آرائهم واتجاهاتهم العلمية والفلسفية في ذلك. فرؤية عالم الاجتماع تختلف عن رؤية عالم النفس لهذا المصطلح، وهذا الأمر ينطبق على جميع المعارف التي تناولت هذا المصطلح.

ذكر الباحثون أنماطا عديدة للاغتراب منها: النفسي (الذاتي)، والفكري، والاجتماعي، والمكاني، والزماني والثقافي وغير ذلك. وبما أن حديثنا في هذه الدراسة ينصبّ حول بعض أنواع مظاهر الاغتراب التي وردت ملامحها في المقامة الكوفية، لذا سنقتصر هنا على ذكر التعاريف التي تختص بالاغتراب المكاني والاغتراب النفسي والاجتماعي.

فيما يتعلق بالاغتراب المكاني فهو «إحساس يشعر به الإنسان في بعده عن وطنه، أو مكان إقامته» (عبدالحفيظ، ٢٠٢١: ٧٨٢٠).

أما الاغتراب النفسي فقد عرّفه الباحثون بأنه «شعور بالوحدة أو الغربة، وانعدام علاقات المحبة أو الصداقة مع الآخرين من الناس» (الدسوقي، ١٩٧٩: ٨). ويرى الباحث محمد رجب بأنه «متعلق بما يحدث للفرد من اضطرابات نفسية وعقلية، ومايستشعره من غربة في العالم، وفتور وجفاء في علاقته مع الآخرين» (رجب، ١٩٨٩: ٣٥).

أما الاغتراب الاجتماعي فهو يتمثل «في شعور الفرد بعدم التفاعل بين ذاته وذوات الآخرين، والبرود الاجتماعي؛ أي ضعف الروابط مع الآخرين وقلة أو ضعف الإحساس بالمودة والألفة الاجتماعية معهم، وينتج ذلك عن الرفض الاجتماعي الذي يعيش في ظله الإنسان في افتقاد دائم للدفء العاطفي» (كراد،٢٠١٩: ١٥).

مما سبق يتبين أن هناك تداخل بين الأنماط والتعاريف والمفاهيم المرتبطة بمصطلح الاغتراب، وهذا التداخل يرجع إلى ظاهرة الاغتراب نفسها وما تحتويه من عناصر ومعاني مشتركة :كالانعزال والوحدة والابتعاد واللامبالاة وعدم الانتماء. ووضع إحدى هذه الأنواع والأنماط تحت مسمّى ما، لايعني عدم تشاركها وتداخلها مع الأنماط الأخرى.

شخصية أبي زيد في المقامات

من الفنون الأدبية التي لاقت رواجا وشهرة في العصر العباسي هو فن المقامات. والمقامات «هي القصص القصيرة التي يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية، أو فلسفية، أو خطرة وجدانية، أو لمحة من لمحات الدعابة والمجون» (مبارك، ٢٠١٣: ١٩٩). ويرى البستاني أن المقامة عبارة عن «أقاصيص خيالية مختلفة

الأغراض والموضوعات... وفيها ضروب من التخابث والاحتيال، للتكسب والتعيش، وفيها صور متلونة لطبائع المجتمع وعاداته» (البستاني،١٩٧٩: ٣٨٩).

وبدايات هذا الفن كان على يد بديع الزمان الهمذاني، والتي قدم في مقامته صورة عن أوضاع مجتمعه وبيئته، ثم جاء بعده تلميذه النجيب أبوالقاسم الحريري، والذي يعد من أشهر رواد هذا الفن، فنسج على منوال استاذه في كتابة المقامات، بل ربما فاقه إبداعا وتطورا، وفضل شيوع هذا الفن يرجع إليه.

تنوعت الأنماط والأشكال السردية في الأدب العربي كالقصص والرسائل والمقامات والروايات. ولكل من هذه النصوص وظائف وعناصر تتميز بها عن الأخرى. وهذا الأمر ينطبق على المقامات الذي هو محور حديثنا في هذه الدراسة.

تتكون المقامات من عناصر سردية متنوعة:كالشخصيات والحدث والزمان والمكان وغير ذلك. تمثل الشخصية أهم عنصر في المقامات وفي السرد بشكل عام، ولايمكن أن نتصور أي نص سردي من دون شخصية. ومن أبرز الشخصيات الرئيسة والمركزية في مقامات الحريري هو أبو زيد السروجي. تتميز هذه الشخصية بالتلون والتضليل والنفاق وبعدم الاستقرار على حالة معينة.

تحدّث الباحثون عن شخصية أبي زيد السروجي، ودار نقاش حول حقيقة وجودها. تعددت آراءهم حول ذلك، منهم من ذهب إلى أنها شخصية خيالية وخرافية، والبعض الآخر يرى أنها شخصية حقيقة وتدعى المطهر بن سلام صاحب الحريري. وأشار آخرون بأنها مزيج من الحقيقة والخرافة (الجبوري، ٢٠١٣). والذي نميل إليه ماذكره الجبوري بقوله: «مهما تكن حقيقة شخصية أبي زيد فنحن إزاء شخصية فنية تؤدي أدوارا على أرض الواقع القصصي، وهي تحاكي وقائع اجتماعية خالصة اتخذت من المجتمع موردا لها، وأخذت على عاتقها أن تكون مرآة عاكسة له بكل سلبياته ومفاسده» (المصدر نفسه : ٢٢٥).

الاغتراب المكاني

من المعروف أن الإنسان مفطور على التواصل والتعامل والتعايش مع الآخرين من بني جنسه، وهو كما وصفه ابن خلدون «مدنيّ الطبع... وهي كناية عن الاجتماع البشريّ. ومعنى هذا القول، أنّه لا تمكّن حياة المنفرد من البشر، ولا يتمّ وجوده إلّا مع أبناء جنسه. وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته، فهو محتاج إلى المعاونة في جميع حاجاته أبدا بطبعه (ابن خلدون، ١٩٨١، ج١ : ٥٩٤).

يتعلق الإنسان بطبعه بمكان ولادته ونشأته وترعره، وهو محب لوطنه وبيئته، ويأتي هذا الارتباط الوثيق بالحاضن الجغرافي لأن «الإنسان مكمل لبيئته وهي مكملة له في نشأته وتطوره، ومن هنا كان للإقليم الذي

يعيش فيه الإنسان وينشأ أثر في أخلاقه، وتكوينه النفسي، واستعداده الفكري، وإبداعه العقلي» (حور : ١٢).

بين الإنسان والمكان علاقة وطيدة وعميقة. والمكان هو حيز جغرافي له سمات وحدود واضحة حيث يختزله البعض في بعده المادي من سهول وجبال وتضاريس وحجارة «غير أنّ المكان ليس مجرد تضاريس وحجارة وجغرافيا، إنّه شيء أشبه بالكائن، نحبه ونكرهه، نهجره ونحنّ إليه، يحتضننا ويقسو على البعض ليدفعهم إلى الهجران والرحيل بعيدا نحو أمكنة أخرى تكون أقل ألفة وحميمية، وهكذا يظهر التفاضل الموجود بين الأمكنة» (جليط، ٩/٥/ ٢٠١٧).

يضطر الإنسان أحيانا إلى الابتعاد والاغتراب عن وطنه لظروف مختلفة، ويحاول قدر الإمكان التعايش والإندامج في موطنه الجديد، إلا أن حنينه وشوقه لموطنه الأول لايكاد يفارقه أبدا، وهو ما عبر عنه أحد الشعراء في أبيات شعرية حيث قال:

كم منزل في الأرض يألفه وحنينه أبدًا لأوّل منزل

(الجاحظ: ١٩٦٤)

ظاهرة الاغتراب من الظواهر التي انتشرت في جميع الأمكنة والأزمنة والعصور، وإن كانت نسبها تختلف من زمان لآخر حسب الظروف السيئة والمحبطة التي تحيط بالفرد والمجتمع. وبالرجوع إلى العصر العباسي نرى أن ظاهرة الاغتراب قد انتشرت في فترات منه بشكل واسع، وذلك نتيجة لعوامل وأسباب متعددة، من أبرزها: العامل الثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي وغير ذلك. مع أن هذا العصر شهد نهضة حضارية وازدهار واسعا في كافة المجالات والميادين، إلا أن مظاهر الفساد التي صبغت المجتمعات لاحقا أدت إلى اضطراب و«تناقض كبير في مستوى المعيشة، فعاش الحكام حياة مترفة لاهية، بينما عاشت الطبقة الفقيرة حياة الفقر والقلق الاجتماعي» (أحمد عوض،٢٠١٩: ١١٥).

هذه التطورات والتغيرات التي تشير إلى ضعف وتدهور في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي، أفرزت في المجتمع شريحة تعاني ويلات الفقر والاضطهاد، مما دفعها للتسول والتكسب والتكدي لسد الفراغ المعيشي والمادي التي تعاني منه. وجاءت المقامة لكي تصور وتبرز «ما تعانيه شريحة واسعة من المجتمع من الفقر والخصاص المادي، وقسوة الحياة، وظلم المجتمع، وضيق الرزق، وشقاء العيش، وكان الفقر باعثا للاغتراب والتكدي» (السويدي،٢٠١٧: ١٤).

كشف الحريري في المقامة الكوفية عن الأوضاع التي كان يعيشها المجتمع بتناقضاته وتقلباته، حيث أعطى أبو زيد دورا بارزا في تصوير وتجسيد هذه الصورة الواقعية، والتي يحاكي فيها أوضاع المجتمع العباسي آنذاك.

تتجلى مظاهر الاغتراب في شخصية أبي زيد وتشتته وضياعه وبعده عن دياره ووطنه في عدة مواضع من هذه المقامة. إحدى هذه المواضع ما جاء في بداية المقامة، حيث حكى الراوي الحارث بن همام عن سهره وسمره مع أصدقائه في ليلة ما، وبينما هم على هذه الحالة طرق أبو زيد عليهم الباب، وهم في الحقيقة يجهلونه ولايعرفونه، فلما استفسروه عرّف نفسه بأبيات شعرية قائلا:

يا أهل ذا المغنى وقيتم	ولا لقيتم ما بقيتم ضرّا
قد دفع اللّيل الّذي	إلى ذراكم شعثا مغبرّا
أخا سفار طال	حتّى انثنى محقوقفا
مثل هلال الأفق حين	وقد عرا فناءكم معترّا
وأمّكم دون الأنام طرّا	يبغي قرّى منكم
فدونكم صيفا فنوعا	يرضى بما احلولى وما

(الحريري، ٢٠١٦: ٣٨)

في هذه الأبيات يصور أبو زيد وضعه المأساوي، وذلك عبر استخدام عبارات وألفاظ تصور شدة معاناته وتغرّبه. فالليل الذي وصفه بشدة ظلامه وسواده، يرمز إلى ضياعه وتشرده، فهو لايجد ملجأ ولامأوى يستقر ويبيت فيه. فألمح أنه يفترش الأرض ويبت في العراء ليلا، و يدل على ذلك قوله (إلى ذراكم)، ويقصد بذلك أن عدم امتلاكه دارا ومنزلا دفعه للمجئ إليهم. وأشار بقوله (شعثا مغبرّا) إلى مظهره وهيئته الرثه، إذ ليس له هيئة ولا لباس ولامظهر حسن، وهذا من آثار الفقر والمسكنة. ثم تطرق إلى كثرة تجواله وسفره وتنقله، حتى إنه وصف نفسه بـ (أخا سفار) أي هو ملازم للسفر باستمرار، وهذا يدل على اغترابه واضطرابه وعدم استقراره. وبيّن في الشطر الثاني من البيت الثالث ضعف جسمه ونحوله وانكماش بدنه، والذي نجم عن جوعه الشديد وقلة غذائه وطعامه. وهو بهذه الأوصاف أراد أن يهيئ المستمعين والمجتمعين حوله للخطوة التالية، وهي طلب الضيافة والطعام منهم.

وفي موضع آخر عبر عن شعوره بالضياع والاغتراب حين طلب منه الحارث بن همام أن يروي لهم أغرب الحكايات فقال: «إنّ مرامي الغربة، لفظتني إلى هذه التّربة، وأنا ذو مجاعة وبؤسى، وجراب كفؤاد أمّ موسى.

فنهضت حين سجا الدّجى، على ما بي من الوجى، لأرتاد مضيفا، أو أقتاد رغيفا، فساقني حادي السّغب، والقضاء المكتّى أبا العجب، إلى أن وقفت على باب دار، فقلت على بدار:

حيّيتم يا أهل هذا المنزل	وعشتم في خفض عيش
ما عندكم لابن سبيل	نضو سرى خابط ليل
جوى الحشى على	ما ذاق مذ يومان طعم
ولا له في أرضكم من	وقد دجا جنح الظّلام
وهو من الحيرة في تململ	فهل بهذا الرّبع عذب
يقول لي: أدخل عصاك	وابشر ببشر وقرى

(الحريري، ٢٠١٦: ٤١)

في هذه الفقرة يعبر أبو زيد عن ذاته البائسة حيث اجتمعت عليه كل معاني التشرد والاغتراب. وأمعن في الوصف حين قال: (إنّ مرامي الغربة، لفظتني إلى هذه التّربة)، فصرح بتغربه، واستخدم كلمة (لفظتني) ليصور شدة معاناته ومرارته، فكأنه أراد أن يشعرنا بأن اغترابه عن مدينته لم يكن طوعيا بل كان مكرها على ذلك، وأنه هاجرها لظروف قاهرة. وكشف عن أسباب هذا الإكراه بقوله: (وأنا ذو مجاعة وبؤسى، وجراب كفؤاد أمّ موسى...الخ) فالعوز والحاجة وتعقيدات الحياة والظروف القاسية دفعته للتنقل والترحال حتى يحصل على بعض حاجته وينال مبتغاه.

وعدّد في هذه الأبيات صور معاناته التي ذكرها في بداية المقامة، فألمح إلى عدم امتلاكه منزلا يأوي إليه. وكذالك أشار إلى جوعه وقلة زاده. لكن ما يلفت النظر أن في النص إشارة للطبقية التي برزت في المجتمع الذي يعيش فيه السروجي، فالطبقة المهمشة والمحرومه التي يمثلها السروجي تعاني من قسوة الحياة وضيق الرزق، في حين أن هناك طبقة أخرى غنية يمثلها الحارث بن همام وجماعته، تنعم بالرفاهية وخفض العيش حسب تعبير السروجي.

وصف السروجي نفسه بأنه (ابن سبيل) وهو كما قال الشريشي: «خاطر طريق، وهو الغريب، وسمّي الغريب ابن السّبيل، لأنه إذا ظهر على قوم لا يعرفونه لم يعرف له نسب إلا السبيل الذي جاء منه» (الشريشي، ٢٠٠٦، ج١: ١٤٤).

وعبر عن تشرده وتغربه في عبارات عدة منها على سبيل المثال قوله: "حابط ليل": وهو«الذي يمشي فيه على غير هداية» (المصدر نفسه، ١٤٤). وكذلك قوله: وهو من الحيرة في تململ؛ «أي في تقلّب وتوجّع» (المصدر نفسه، ١٤٤).

في طريقه التقى أبو زيد بغلام حسن فصيح، وقدّمه للحارث وجماعته بانّه ابنه، وهو في الحقيقة ليس كذلك حيث نفى في آخر المقامة أن يكون ذاك الفتى ابنه. مايهمنا في هذه الفقرة هو تركيز أبو زيد على تشرده وتغربه واستخدامه أساليب متنوعة للتعبير عن اغترابه وإن جاءت بطرق ملتوية. فللمرة الثالثة وفي فترة قصيرة يتناول ظاهرة الاغتراب ويكررها على مسامع الحارث وجماعته.

دار حوار قصير بين أبي زيد والغلام، فعرّف الغلام نفسه حتى وصل إلى قوله: «أخبرتني أمّي برّة، وهي كاسمها برّة؛ أنّها نكحت عام الغارة بماوان، رجلا من سراة سروج وغسّان، فلمّا آنس منها الإثقال- وكان باقعة فيما يقال- ظعن عنها سرّا وهلمّ جرّا فما يعرف:أحيّ هو فيتوقّع، أم أودع اللّحد البلقع. قال أبو زيد: فعلمت بصحّة العلامات أنّه ولدي، وصدفني عن التّعرّف إليه صفر يدي، ففصلت عنه بكبد مرضوضة، ودموع مفضوضة» (الحريري، ٢٠١٦: ٤١).

كما قلنا سابقا، فان هذه القصص تحاكي وقائع اجتماعية وهي تعكس أوضاع المجتمع في تلك الفترة، لأن «المقامة تقوم على حكاية تعتمد المغامرة، وغايتها الغوص في قاع المجتمع لتعرية الواقع الإجتماعي، ونقد الظواهر الاجتماعية السلبية ويقوم ببطولتها بطل أو اثنين، وتنتهي جميعها إلى نجاحه في التحايل على الناس، ووصوله إلى تحقيق مآربه من هذا التحايل من كسب ونوال» (الباججي، ٢٠١٤ : ١٨٦).

ظاهرة الاغتراب التي عكسها الحريري والتي جسدها أبو زيد في هذه الفقرة، ماهي إلا انعكاس لظواهر اجتماعية أخرى: كالوضع الاقتصادي المتردي، وظاهرة التفكّك الاجتماعي والاسري. فقصة أبو زيد مع ابنه المزعوم وتنكره عنه مؤشر على عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي، حيث وصل الأمر بأبي زيد أن يخفي هويته عن ابنه وهو في هئية الاستجداء والتسول. ويصوّر هذا المشهد تنازل أبو زيد عن كرامته وعزة نفسه، حيث استخدم ضروبا من الحيل في سبيل الحصول على المال.

تألم وتوجع أبو زيد في قوله: «وصدفني عن التّعرّف إليه صفر يدي، ففصلت عنه بكبد مرضوضة، ودموع مفضوضة» (الحريري، ٢٠١٦: ٤١) يشير إلى عدم رضاه عن نفسه والطريق الذي يسلكه، لكنه يقف عاجزا عن تغييرها، كأنه بذلك يحمل المجتمع مسؤولية ما آلت اليه الأمور.

الاغتراب النفسي والاجتماعي

ذكرنا سابقا أن للاغتراب أنماطا عدة، منها: المكاني والنفسي والاجتماعي وغير ذلك. تحدثنا في المحور السابق عن الاغتراب المكاني. في هذا المحور سنتناول الاغتراب النفسي والمكاني معا. وآثرنا أن نجمع الاغتراب النفسي والاجتماعي تحت عنوان واحد نظرا لتداخلهما وتطابقهما في نقاط عديدة. وربما تجتمع هذه الأنماط في شخص واحد كالتي نراها في شخصية أبي زيد السروجي بطل مقامات الحريري.

بالتمعن قليلا في شخصية أبي زيد نرى أنه لاينسج علاقات إيجابية وثابتة مع الآخرين، فهو يشعر بأنه لاينتمي إلى المجتمع الذي يعيش فيه، وهذا مؤشر واضح على اغتراب شخصيته. لأن الاغتراب النفسي والاجتماعي يقوم أساسا «على غياب العلاقات الإيجابية مع الأخرين مما يؤدي إلى تفكك للقيم وللمعايير الاجتماعية فيصبح الإنسان غير قادر على التجانس مع الآخر والتحكم في انتمائه للمجتمع، فإذا تمرد الإنسان عن القيم ورفضها ينفصل اجتماعيا عن مجتمعه ... فغياب المعايير الاجتماعية في العصر العباسي زعزعت العلاقات الإنسانية، فشاع الكذب واللهو والنفاق...وفقدت العدالة الاجتماعية وانتشر الظلم» (نصيرة، ٢٠١٦: ٢٢٩).

فإذا كان المجتمع تفشى فيه صور الجهل والتناقض والكذب، حينها تصبح الحياة بلامعنى، عندها يشعر «الفرد بالانفصال عن جانب أو أكثر من جوانب المجتمع،كالشعور بالانفصال عن الآخرين، أو القيم والأعراف والعادات السائدة في المجتمع...، إضافة إلى مايصحب ذلك من إحساس بالألم والحسرة، أو التشاؤم واليأس، وما يرافقه أحيانا من سخط أو تمرد» (سلامي، ٢٠٠٠: ١٥١).

هذا الاغتراب والاحباط والتشاؤم لم يأتي من فراغ بل كان نتجة لأسباب ودواع أدت إلى تفاقم هذه الظاهرة. «وأهم هذه الأسباب هو:

١.الظلم الاجتماعي ممايسبب العزلة

٢.الانحطاط الخلقي المتجلي في الحسد والكسل والنهم والتهالك على الشهوات والمكاسب المادية

٣.الظلم الاقتصادي الذي يجعل إحدى طبقات المجتمع تستغل الطبقات الأخرى» (الشقيرات، ١٤٠٧: ١٤)

النبرة الاستجدائية التي نراها في عبارات السروجي، تعبر بكل وضوح عن يأسه وقنوطه وتشاؤمه من واقعه الاجتماعي. فهو حرم من رغد العيش، ويعاني من الفقر والجوع والحرمان والشدة ويبيت في العراء دون مأوى، وكسرة الخبز كانت بالنسبة إليه حلما غاليا عزيز المنال، وهذا مانراه في قوله: (لأرتاد مضيفا، أو أقتاد رغيفا، فساقني حادي السّغب، والقضاء المكنّى أبا العجب، إلى أن وقفت على باب دار). هذه

العوامل وعوامل ذاتية أخرى دفعت السروجي كي ينافق المجتمع ويعاملهم بازدواجية فجة. فهو ساخط وناقم على وضعه الاجتماعي، لكنه حسب تصوره لاحل أمامه للتغلب على ذلك سوى المراوغة والاحتيال والخداع والكذب حتى يفتكّ حقه من الآخرين.

أبو زيد بسبب اغترابه لاينسجم مع من حوله من الناس. فهو لايشعر بانتماء حقيقي إلى الأمة والمجتمع، وعلاقاته الشخصية مع الآخرين غير ثابتة وغير مرضية، بل هو يبني علاقات لحظية زائفة مبنية على النفعية والمصلحة واحتكاكه بهم سلبي وتصادمي. فهو وإن كان يشعرهم بأنه قريب منهم وصديق لهم لكنه في النهاية يتبين أنه بعيد عنهم وعدو لهم. لأنه يرى الحياة مجرد خدعة، وأن العالم حوله صبغ بالقهر والعدوانية بحيث يهدد وجوده وذاته. فهو لايتوانى عن ضرب قيم وأعراف مجتمعه عرض الحائط. لهذا أضمر كل مشاعر الحقد والكراهية تجاه هذا العالم، وحاول جاهدا أن يفتك حقوقه بكل الطرق المتاحة، وان كانت غير مشروعه: كالخداع والكذب والتدليس والغدر والنفاق. ويتجلى ذلك في حواره الأخير مع الحارث وصحبه حيث قال:

فمهّد العذر أو فسامح إن كنت أجرمت أو

(الحريري، ٢٠١٦: ٤٥)

هو ناقم على الناس وحاقد عليهم لأنّه اعترف بكل وضوح أنه قد قام بخداعهم ودلس عليهم، وأنه قد أجرم في حقهم واستهتر بهم وبمبادئهم، لكنه علل وبرّر أفعاله بأنه كان مجبرا على ذلك. وحاول أن يستميل الناس بفنون القول والخداع وجعلها وسيلة لجنى المال. وأشار في حديثه أنّه إذا تخلى عن ذلك، سوف تتدهور حالته المادية. وهذا ما نجده في قوله:

تخذتها وصلة إلى ما تجنيه كفّي متى اشتهيت

ولو تعافيتها لحالت حالي، ولم أحو ما

(الحريري، ٢٠١٦: ٤٥)

هذا الاعتراف الصارخ والتحدي الواضح مؤشر على اغتراب السروجي وتوتره واضطرابه، فهو ينظر إلى الحياة بمنظار أسود، ومظاهر القلق وفقدان التوازن تتجلى في كلامه. لأن تعاقب الإحباطات أدت به إلى تمرده على قيم مجتمعه وأفكاره. وردود المغترب تتسم بأشكال مختلفة، مابين الانسحاب عن الواقع أو التمرد عليه. ويبدوا أن أبا زيد زاوج بين الاثنين، فتمرد بطريقة ناعمة وملتوية، وانسحب كذلك بطريقة هادئة وخادعة.

لم يعان أبو زيد من الغربة المكانية فحسب، بل عانى كذلك من الغربة النفسية والاجتماعية. وكانت عباراته (إن مرامي الغربة لفظتني...إلخ) تعبيرا عن هذه المشاعر. حاول أبو زيد الهروب من واقعه المرير عبر طرق الاحتيال والمراوغة. فشخصيته كما أشرنا آنفا لاتتسم بالثبات. فنراه يتواصل ويحتك بالأخرين ويندمج معهم، لكنه سرعان ما يتخلى عن ذلك بانقضاء مآربه وحاجاته. وهذا التحول والتغير والتقلب في إحدى دوافعه ناجم عن ظروف ذاتية واجتماعية.

تحليل عبدالفتاح كيليطو في كتابه الغائب وحديثه بإسهاب عن ازدواجية أبي زيد وتلونه وتقبله ربّما يعود في جزء منه إلى شخصيته القلقة والمغتربة. فهناك العديد من الظروف التي تتضافر لتشكل حالة ما. وحالة أبي زيد ربما إحدى بواعثها ما أشرنا إليه في هذال المحور، وهو قضية الاغتراب بأنماطه المختلفة.

وأخيرًا نشير إلى أنّ كلّ «الأدوار الذي أوكلت للسروجي، إنّما هي مواقف اجتماعيّة لها حضورها في الواقع الاجتماعي، حاول الحريري نقدها نقدًا بناءا....ووظف شخصية أبي زيد السروجي توظيفًا ناجحًا بوصفها جزءًا من البنى الثقافيّة والاجتماعيّة والنفسيّة» (الجبوري، ٢٠١٣: ٢٥٧).

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة الذي تناولنا فيه موضوع الاغتراب في المقامة الكوفية للحريري، نذكر ما خلص إليه البحث من أفكار، ومن أهمها:

تعدد مفاهيم مصطلح الاغتراب وتعاريفه واستعمالاته نظرا لكثرة المنظرين له حيث تعددت آرائهم واتجاهاتهم العلمية والفلسفية في ذلك.

للاغتراب أنماطا عديدة، ومن أبرز الأنماط التي ركزت عليها الدراسة هي: المكاني، والنفسي (الذاتي)، والاجتماعي.

هناك تداخل بين الأنماط والتعاريف والمفاهيم المرتبطة بمصطلح الاغتراب، وهذا التداخل يرجع إلى ظاهرة الاغتراب نفسها وما تحتويه من عناصر ومعاني مشتركة :كالانعزال والوحدة والابتعاد واللامبالاة وعدم الانتماء.

الاغتراب عند أبي زيد اتخذ أشكالا مختلفة (المكاني، النفسي، الاجتماعي)

اغتراب أبو زيد لم يأت عبثا، بل كان نتاج ظروف اجتماعية واقتصادية وثقافية

عانى أبو زيد من اغتراب مكاني حيث تجلى ذلك في تشرده وتنقله في البلاد. وكذلك في فقره وجوعه وعدم امتلاكه منزلا يأوي إليه.

ذاق السروجي الاغتراب النفسي والاجتماعي. وتتميز شخصيته بأنه لاينسج علاقات ثابتة وإيجابية مع الآخرين. فهو لايشعر بانتماء حقيقي للمجتمع.

اتبع أبو زيد أساليب غير مشروعه كالخداع والتقلب والتلون لدفع الاغتراب عنه.

في العصر العباسي تدهورت الأوضاع في المجالات الاقتصادية والاجتماعية، حيث أفرزت في المجتمع شريحة تعاني ويلات الفقر والاضطهاد، مما دفعها للتسول والتكدي، وكان الفقر باعثا للاغتراب والتكدي.

وظف الحريري شخصية أبي زيد ليعكس الظواهر المنتشرة في المجتمعات العباسية: كالكدية والاغتراب.

المصادر والمراجع

١- الكتب

- ابن خلدون، عبدالرحمن (١٩٨١)، **تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العِبَر و ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، الطبعة الأولى، مراجعة: سهيل زكار. بيروت: دار الفكر.
- ابن فارس، أحمد (١٩٧٩)، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبدالسلام هارون. بيروت: دار الفكر.
- ابن منظور، جمال الدين (١٤١٤ هـ)، **لسان العرب**، الطبعة الثالثة، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين. بيروت: دار الفكر.
- البستاني، بطرس (١٩٧٩)، **أدباء العرب في الأعصر العباسيّة**، لبنان – بيروت: دارالجيل.
- الجاحظ، عَمرو بن بحر (١٩٦٤)، **رسائل الجاحظ**، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- الحريري، أبي محمد (٢٠١٦)، **مقامات الحريري**، القاهرة: دار الغد الجديد.
- حور، محمد إبراهيم (من دون تاريخ)، **الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي**، مصر: دار النهضة.
- الدسوقي، كمال (١٩٧٩)، **ذخيرة علوم النفس**، بيروت: دار الطليعة.
- رجب، محمود (١٩٨٩)، **الاغتراب سيرة مصطلح**، القاهرة: دار المعارف.
- سلامي، سميرة (٢٠٠٠)، **الاغتراب في الشعر العباسي**، *القرن الرابع الهجري*، دمشق: دار الينابيع.
- الشريشي، أحمد (٢٠٠٦)، **شرح مقامات الحريري**، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الشقيرات، أحمد (١٤٠٧)، **الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب**، الأردن: دار عمار.
- كيليطو، عبدالفتاح (٢٠٠٧) **الغائب دراسة في مقامة للحريري**، الطبعة الثالثة، المغرب ـ دار البيضاء: دار توبقال للنشر.
- مبارك، زكي (٢٠١٣)، **النثر الفني في القرن الرابع**، مؤسسة هنداوي.

٢- المجلات

- أحمد عوض، رجب (٢٠١٩)، «الاغتراب النفسي قراءة في شعر ابن الرومي»، ***مجلة بحوث كلية الآداب***، العدد ١١٨، ١٠٩- ١٣٢.

- الباجحي، بشار (٢٠١٤)، «نقد المجتمع في المقامات اللزومية للسرقسطي»، ***مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية***، العدد ١، ١٨٥- ٢٠٢.

- الجبوري، محمد فليح حسن (٢٠١٣)، «شخصية أبي زيد السروجي في مقامات الحريري هيآتها، أنماطها تحولاتها»، ***أوروك للعلوم الإنسانية***، العدد الثالث، ٢١٧-٢٦٥.

- السويدي، خطيطة (٢٠١٧)، «البنية الثقافية في مقامات الهمذاني»، ***حوليات آداب شمس***، عدد خاص، ١- ١٩.

- عبدالحفيظ، شعبان زكي (٢٠٢١)، «تجليات الاغتراب في شعر خيرالدين الزركلي»، ***حولية كلية اللغة العربية بنين جرجا***، العدد الثامن، ٧٧٦٥-٧٨٤٣.

- كراد، رجب (٢٠١٩)، «دلالات الاغتراب الاجتماعي في الشعر الجزائري الحديث، ***مجلة الباحث***، العدد الثالث، ١١-٢٧.

- نصيرة، بركة (٢٠١٦)، «الاغتراب الاجتماعي عند أبي العلاء المعري»، ***مجلة النص***، عدد ١، ٢٢٩- ٢٣٨.

٣- المواقع الإلكترونية

- جليط، عبدالسلام، (٢٠١٧/٥/٩)، «صداقة الأمكنة»، موقع الجزيرة، *www.aljazeera.net/blogs*

Characteristics and Signs of self-alienation in the Kufiyyah's Maqamah
(A case study: the personality of Abuzeid Sarooji)

Seyed Hossein Marashi[1], Abdolbaset Booloki[2]

1. Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, Shiraz University. (The Corresponding Author): hosein-marashi@shirazu.ac.ir
2. MA Student of Arabic Language and Literature, Shiraz University

Abstract

The audio component has a very important role in demonstrating perfect harmony and balance between the composite visual images. The solidarity of sound with the narrative framework and visual scenes enhances the connotations emanating from the events. From this standpoint, we see that sounds in literary discourses are divided into several parts. Such as dialogues, effects, music and silence، It is influenced by events and characters' reactions, and expressive connotations emerge from them that match literary discourses, such as poetic discourse mixed with successive visual images and some events in short clips of poems. One of the most prominent contemporary poets in whose poems this modern technology appeared is the Emirati poet Hassan Ali Al-Najjar, especially in the collection "On His Pillow A Touch of Anxiety," which he created with several sound effects, such as soundtracks, sounds related to nature, and dialogues. This study explores the aspects of employing sound effects and their impact on the recipient in the collection "On His Pillow A Touch of Anxiety" according to the descriptive-analytical and deliberative approach. Hence, this study aims to clarify the pillar of sound technology to enhance dramatic events and the visual image and to demonstrate the ability that sound has in creating events. This research paper reached several results, the most important of which are: The presence of sound technology in Ali Hassan Al-Najjar's poetry served as a stimulating factor for the feelings and dreams contained in his collection. The perfect balance between multiple voices led to the emergence of the psychological dimension in the poetic image and gave events a double power in visual narration. From this standpoint, this study revolves around four axes: Sound support for a psychologically visual scene, exciting and responsive in sound technology, sound effects and dramatic growth.

Keywords: Contemporary Emirati poetry, the psychological dimension, sound effects, the collection "On His Pillow is a Touch of Anxiety," by Ali Hassan Al-Najjar.